أنواع جديدة على العلاقات السياسية والثقافية
بيرو المغرب الرياني
والشرق الإسلامي في العصور الوسطى

دكتور سالم الدهماني
جامعة السابع من إبريل الزاوية
كلية لآداب
نتناول هذه الدراسة بالسرد والتحليل العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب المريني والمشرق الإسلامي والذي سئملت الضوء فيه على دور المغرب في ربط علاقاته بالمشرق وكيف أحكموا بني مرين قبضتهم على المغرب الأوسط من أجل تأمين قوافل الحجاج المغربي والتي كانت محوراً لربط العلاقات بين هذه الديار وتلك الديار كما يشمل هذا العرض ملاحظات الرحلة المغاربة وعن أحوال البلاد بالمشرق في مصر والحجاز وفارس وعمان وجزر المالديف آسيا وغيرها من المناطق، إن الاهتمام بناحية العلاقات السياسية والثقافية بين المغرب في العصر المريني والمشرق الإسلامي تبين مدى ما كان ينعم به المغرب من سمعة وما كان يحظى به من مركز مرموقة لدى الحاكمين والشعوب في كل جهات المعورة.

لقد عرف عن المغرب بأنه تفاعل مع سائر الحضارات ووákب سائر التُنات و كل الفضل والتقدير يرجع إلى حرص المغاربة على المعرفة والإطلاع وإقبالهم على الاحتكاك بالناس وتهافتهم على العلماء والعظماء في معظم أنحاء المعمرة شرقاً وغرباً، فكانت السفارات المتوالية السامية في أهدافها ومعبرة عن روح التواصل الأخوي بين المغرب والمشرق خير دليل على ذلك.

لقد تطلع سلاطين بني مرين إلى ديار المشرق الإسلامي باعتبار أن المغرب امتداد طبيعي لمعظم البقاع في البلاد الإسلامية وكانت مصر تمثل أولى محطة الأنظار لحكم بني مرين، لأن مصر كانت البوابة الرئيسية التي تطل منها المغرب على بلاد المشرق الإسلامي فكان تركيز بني مرين منذ الوهلة الأولى هو تحسين علاقاتهم مع
الديار المصرية وبقية أجزاء المشرق الإسلامي من الشام والعراق وفارس والجزيرة العربية.

لقد كانت العلاقات بين المغرب وبلاد المشرق مرتبطة دائمًا بقوافل الحجيج المغربي التي تسافر سنوياً إلى الديار المقدسة وكانت تلك القوافل هي الأخرى مرتبطة بظروف الحياة السياسية والأمنية التي تعيشها تلك المناطق الساحلية، وكان لسوء الأوضاع السياسية سبباً رئيسياً لعدم استمرار قيام علاقات رسمية، ففي سنة 703 هـ- 1303 م استطاع السلطان المرنيي أبو يعقوب يوسف عبد الحق المرنيي إن يسيطر على المغرب الأقصى الذي كان يحكمه بنو عبد الواد والذين كانوا يقعون حجرة عقب أمام قوافل الحجيج المرنية القاسدة إلى مصر ومنها إلى مكة.(1)

لقد بدأت أول علاقات بين بني مرين وبلاد المشرق عندما خرجت أول قافلة تحمل الحجاج المغاربة إلى مكة والأراضي الحجازية الأخرى سنة 703 هـ- 1303 م وكان السلطان أبو يعقوب يوسف المرنيي قد خصص أهمية كبرى لخروج تلك القافلة إظهار أهمية الدولة المرنية في بلاد المغرب وقد أمر السلطان أصحابه "باستثمار مصحف رائع الصنعة كتبه و نمته أحمد بن الحسن الكاتب المحسن وعمل غشاءه من بديع و استكرف فيه من معالق الذهب المنظم بخزائر الدار والياقوت وجعلت منها حصاة وسط المعلق نفوذ الحصيات مقدراً وشاكلاً وحسن واستكرف من الأصوصنة عليه ووقفه على المحرم الشريف.(2)
وقد عين السلطان على القافلة قاضيًا يدير شؤون القافلة ورفاقها. فتكون القافلة فرقة من الحراس من حوالي خمسة من فرسان قبيلة زناته من نواحي فاس، وكان السلطان المريني قد "خاطب صاحب الديار المصرية واستدعا بحاج المغرب من أهل مملكته وأتحفه بهدية تحقب بلاده واستكشر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة".

وكان تلك الخطاب قد استلمه أحد رجال المماليك العاملين في البلاط المريني فاس ويعترف باسم الشهرزوري ويشير ابن الوردي إلى تلك الرسائل والهدايا القيمة قد وصلت إلى الديار المصرية عام ٧٠٤ هـ- ١٣٠١ م (١٠) وكانت تلك المراسلات بداية أول صفحة في تاريخ العلاقات بين المغرب المريني والمماليك في مصر.

لقد استمرت قوافل الحجاج المغاربة دون توقف بعد إن فور لها الأمن والاستقرار عبر أراضي المغرب الأوسط والآدنى في ربيع سنة ٧٠٤ هـ- ١٣٠١ م ذهب إليها الأراضي الحجازية قافلة أخرى، وكان تحت إمرة أبو زيد الغفاري (١٢) وقد أثارت هاتين القافلتين إلى الأراضي الحجازية اهتمام شرفاء مكة حيث فهموا من خلال تلك القوافل المتميزة بالهدايا والمنتظم في رحلته باني بمرين احتموا قبضتهم على تلك البلاد بين الشرق والمغرب، وهو ما جعل بعض شرفاء مكة من الاحتماء بهم واتخاذهم ملاذا، عندما شعروا بضغوطات سلطان مصر المملوكي، وهنا نسمعها عن عودة الشريف لبيده بن أبي نمي مع قافلة الحج الأولى، ويشير المصادر إلى أن سلطان مصر المملوكي كان قد قبض على أخوته حميضه ورميهم بعد وفاة أبيهم أبا نمي صاحب مكة سنة ٢٠١ هـ- ١٣٠١ م.
لقد عاد هذا الشريف مع القافلة سنة ۷۰۴هـ-۱۳۰۴م وبلغ السلطان أبو يعقوب يوسف في إكرامه وخصوص له فرقة لمرافقته لتجول في مدن المغرب وأقاليمها والوقوف على معالمها التاريخية والحضارية وظل ذلك الشريف مقيماً في حماية البلاط المرنيمي حتى عاد إلى المشرق سنة ۷۰۵هـ-۱۳۰۵م.

وفي نفس العام الذي كان قد غادر فيه أخوههم لبيده بلاد المغرب استطاع أشرف مكة أن يرسلوا ببيعتهم إلى السلطان أبي يعقوب يوسف و كان هذا الخطاب قد جاء به أبي زيد الغفاري الذي كان دليلا لقافلة الحجيج المغربي الثانى و خاصة عندما ساءت العلاقات بينهم وبين صاحب مصر السلطان الناصر محمد قلاوون.

لقد جاء دليل القافلة أبي زيد حاملاً معه خطاب البيعة مع ثوباً من كسوة الكعبة الشريفة للسلطان المرنيمي أبي يعقوب حيث كان السلطان قد "شغف به وأتخذ منه ثوباً للباسه في الجمع والأعياد يستبطنه بين ثيابه تبّركا به".

لم تؤثر العلاقات بين إشراف مكة وبني مرين على العلاقات السياسية بين بني مرين وممالكة مصر فقد بعث سلطان مصر قلاوون بهدية عظيمة إلى أبي يعقوب و كانت الهدية من طرف بلاده من الثياب والحيوانات يستغرب جنسه وشكله من نوع الفيل وزرافة وأوفد بها من عظامه دولته (الأمير البلغي) وقد وصلت الهدية إلى مدينة المنصور بتمسان سنة ۷۰۶هـ-۱۳۰۴م وقد استقبل السلطان أبي يعقوب الوفد استقبالاً عظيماً وليق بالضيف العزيز وأرسل الوفد إلى مدن المغرب الاقليمي للإطلاع على المعالم الحضارية للدولة وآثارها.
وفي أثناء هذه الزيارة كان السلطان يعقوب قد وفته المنية وتولي
بعده السلطان أبو ثابت المريني لتمثية إكرام سفارة الوفد المصري و
قدم لأعضائه عند رجوعهم هدايا ثمينة دعماً للعلاقات بين البلدين.
و تحرك الوفد المصري بعد إتمام الزيارة عاد إلى مصر في ذي
الحجة سنة 717 هـ - 1317 م وكان ذلك الوفد قد تعرض بالقرب من
منطقة بن حسن لسطو الإعراب على القافلة ونهبوا ما معها من أموال
وهايا(1) وقد كان لهذه الحادثة المؤسفة أثارها السلبية على العلاقات
بين البلدين إذ مرت العلاقات بمرحلة فتور فعل يعاودوا سلطانين مصر
بعدها إرسال سفارة إلى المغرب، وقد أثارت أصابع الاتهام في تلك
الحادثة إلى بني عبد الواد أعداء بني مرين لتعكير صفو العلاقات بين
سلطانين مصر و بني مرين(1).

لقد أرسل سلطان مصر الناصر بن محمد قلاوون رسالة شجب
إلى سلطان بني مرين يعتاب فيها عن ما أصاب القافلة المصرية في
بلاد المغرب وأوقعها بهدية كان سلطان المغرب قد شعر بعدم جذوة
الهدية وكانت عبارة عن كوبين من دهن البيلسان وخمسة مكانيك من
الترك رمائها بخمس أقواس من قسي الغز الموأبة الصنعة، وقد أعقبت
الهدية سلطان المغرب أبو ثابت المريني واستدعى قاضيه محمد بن هديه
وأملى عليه خطاباً شديد اللهجة كان موجهاً إلى سلطان مصر، وقد جاء
في الخطاب على لسان سلطان المغرب إلى كابته محمد هديه "اكتب
أيان إلى الملك الناصر كما أقول لك ولاتحرف كلمة عن موضعها إلا
ما يقتضيه صناعة الإعراب وقل له عن شأن الرسل ما أصابهم في
طريقهم فقد حضروا عندي و آرائهم مخاوف بلادنا و ما فيه من غوائل
الإعراب فكان جوابهم إن جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغتربي بشأنهم يحسبون أن إمروه نافذ في إعراب فلاننا وإما الهدية فترد عليك إما دهن البيلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسينا به دهنا وإما المماليك الرمثة فقد فتحنا بهم أشبيلية وصرفانهم إليه لفتح بهم بغداد والسلام(13).

ويبدو من خلال الرسالة بأن صاحب تلك الرسالة هو السلطان أبو ثابت المرنيي حيث أن وفد السفارة المصرية كان قد غادر البلاد المغربية في عهده، وعلى كل حال فإن تلك الرسالة أو الخطاب كان له أثرًا سيئًا في استمرار العلاقات السياسية بين البلدين، فقد أدت تلك الحادثة إلى قطيعة استمرت لسنوات(14) حتى عهد السلطان أبي الحسن المرنيي حيث استأنفت العلاقات من جديد ودخلت مرحلة جديدة من جسور الود والإخوة.

لقد كان أولى اهتمامات أبي الحسن المرنيي هو إعادة مكانته الدولة المرنيي بين إنهاء العالم الإسلامي وخاصة مصر وديار المشرق وكان هدف استيلاء أبي الحسن على المغرب الأوسط وضبط نفوذه عليه من جديد لضمان افتتاح دولته على بقية أجزاء العالم الإسلامي، وبمجرد إن سبطرة أبي الحسن على بلاد المغرب الأوسط حتى بعد إرساله سفيره فارس بن ميمون بن ودادر ليخبرهم بما تم له من فتح واستقرار الأمن بلاد المغرب الأوسط وزوال المخاطر التي كانت تعتذر ضرائب الحجيج المغربي، وقد استقبلت هذه السفارة من طرف سلطان مصر استقبالًا يليق بالضيف العزيز رد على أثرها سلطان مصر بكتاب سلطاني يقر تجديد علاقات الود والإخوة بين البلدين(15) وفي إطار علاقة
بني مرين بالحرم المكي الشريف، فقد قرر السلطان أبي الحسن إن يقوم بكتابة نسخة من المصحف الكريم بخط يده ولما أكمل نسحها "جمعاً الوراقين لتنميقها وتذهيبها والقراء لضبطها وتهذيبها وصنع لها وعاءً مؤلفاً من الأبنوس والجاج والصنديل فائق الصناعة وغشي بصفات الذهب ورقص بالجواهر والياقوت واتخذ له أصومة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم أدهمها بخطوط الذهب ومن فوقها غلاشف الحرير والديباج وأغشية الكتان وأخرج من خزائه أموالاً عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون واقفاً على القراء فيها(10). لقد خرجت قافلة الحاجيج التي تحمل نسخة المصحف الشريف من مدينة تمسان عام 1387-1374 م، وكان السلطان قد أوقف معها عدد من كبار المسؤولين في دولته وخصاص مجلسه نذكر منهم عريف بن يحي من عرب بني هلال وأبا الفضل بن محمد بن أبي مدين وعريف الوزعة ببابه وصاحب دولته بن قاسم المزوار، وكان عادة سلاطين المغرب أن يرسلوا مع قوافل الحاجيج هدايا الثمينة فقد أرسل أبي الحسن مع ذلك الوفد هدية كبيرة كانت معجزة عظيمة في المغرب (11) والمشرق وقد وقف ابن خلدون بنفسه على مرسوم الهدية بخط كاتب السلطان أبي الفضل بن محمد بن أبي مدين حيث احتوت الهدية على "خمسة من عتيق الخيل المقربات بسروب الذهب والفضة ولجها خالصاً ومغشي ومموجاً... خمسة حمل من متاب المغرب وعازونه وأسلحته و من نسج الصوف المحكمن وثياباً وكسيه وبراسات وعاتم وأزر معلمه وغير معلمه ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب مثلوناً وغير ملون، ومن الدرب المجوحة من بلدان
الصحراء المحكمة بالرباع المعافر وتتسب إلى اللمط... وما يستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حضى الجوهر والياقوت.

وقد وصل الركب محمٍّ بالهدىاء في شهر رمضان سنة 738 هـ-1338 م برفقة الحرة مرير التي كانت حضية من حضايا والد السلطان أبي الحسن، وقد تم إزال الهاياء التي بعث بها السلطان المرني، وقد أمر السلطان الناصر محمد قلاوون المهندس باستقبال الركب الحاج الغربي و أنزلهم بالقرب من مسجد الفتح وكان يوم ظهور الهدية المرني فيه يوم مشهوداً، حيث قام السلطان بتلقي الهاياء على كافة الأمراء كل قدر مرتبتة حتى نفذت كلها عدا الجوهرة واللؤلؤ اختص به الناصر نفسه.

لقد احتفل ملوك مصر بوصول الركب وخصص مكان لضيافة الحرة مرير ومن معها وصرفت عليهم الرواتب من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم فكان برتبهم من كل يوم ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إرداب أرز وقطر حب رمان وربع قطر السكر وثمانية فانوسيات من الشمع وتبادل الطعام وحمل إليها برسام المفقكة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم. وعندما استهدت الحرة مرير للسفر أمر سلطان مصر وزيره أن يجهز لها ما تحتاجه في سفرها من أطواق الحلوى والدقيق والسكر وغيرها، كما أمر السلطان متوالي الجيزة بأن يرحل بها في ركب لمفردها ويمتثل لكل ما تأمره به وأرفع الركب بخطاب إلى أمير مكة و المدينة من أجل خدمتها ورعايةها.
لقد وثق سلاطين مصر علاقاتهم بالمغرب الاقصى و شعروا بالثقة المتبادلة وجسور الحب بين الدولتين وبعد ان أكمل ركب الحجاج فرائض الحج وعاد راعياً كان السلطان الناصر قد جهز هدية للسلطان أبي الحسن المرنيب كانت تتكون من ثياب صنعت في الإسكندرية بديعة النسج مرتومة بالذهب وفساطط غريبة الشكل و الصنعه وخيمة مصنوعة بالشم فيها أمثال البيوت والقباب مبطنة من الداخل بالحرير العراقي وصولان مربع الشكل مصنوع من الحديد وعشرة جياد بسراه ولجم ملوكيه مصنوعة من الذهب والفضة ومرصعة باللائفي (2)

استمرت العلاقات مع المشرق حيث كتب أبي الحسن نسخة أخرى من المصحف الشريف ووضعها على الحرم المدني في المدينة المنورة وكان قد بعثها مع رجال دولته سنة 674 هـ-1276 م وقد استمرت علاقات الأخوة قائمة حتى وفاة الناصر سنة 680 هـ-1280 م حيث ضعفت العلاقات السياسية بين البلدين أثر بعض الفتن الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة وضعف بسبب ذلك طريق أمين الحج لسنوات وسرعان ما استقرت الأوضاع بعد تولي الأمور (13) في يد الصالح أبي الفداء إسماعيل عام 743 هـ-1342 م واستطاع هذا الأخير أن يعيد الأمور على ما كانت عليه وأمن طريق الحج، وقد بعث على أثرها السلطان المغرب أبي الحسن كاتبه وصاحب الخراز في دولة أبي الفضل بن عبد الله بن أبي مرين يحمل معه رسالة لتقديم العزاء في وفاة الناصر رفقة الحرة مريم التي كانت بمثابة والدها أبي الحسن وكان ذلك من منتصف شعبان سنة 745 هـ-1344 م وقد نجح ذلك الوزير تلك المهمة و استطاع أن يظهر في أدائها أبها سلطان المغرب أبي
الحسن حيث فرق العطايا على المستضعفين من الحجاج في طريقه وما قدمه من تحف إلى رجال الدولة المملوكية.

مثلما شهدت العلاقات بين البلدين تواصل جسور الود فقد شهدت في أواخر عهد أبي الحسن فتوراً في العلاقات فعندما طلب أبي الحسن من السلطان المملوك في حسن بن الناصر قلاوون بالقبض على الوزير الحفصي ابن تافرجين وتسليمه إلى البلاط المريني قُوبلت تلك الدعوى بالرفض من طرف السلطات المصرية حيث أن ذلك الوزير كان يمثل المقاومة ضد الوجود المريني في إفريقيا وكان في حماية بعض أمراء المماليك الأقوياء في البلاط المملوكى.

لقد لعبت قوافل الحجيج المغربي إلى جانب العلاقات السياسية والدينية دوراً هاماً في تدعيم العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب ومصر والمشرق من خلال قوافل الحاج التي كانت تنقل معها البضائع المغربية إلى الأسواق المصرية وكذلك عند عودة الحجاج المغاربة يشترون معهم السلع المصرية ويوزعوها في الأسواق المرينية في أوقات محددة في كل عام، وقد ساعد ذلك على تشغيط الصناعات المغربية المختلفة التي كانت القوافل تحملها معها كهدايا من البلاط المريني.

وقد اشتهرت المغرب بالخيول التي كان ملوك مصر شغفون بها حيث بعث السلطان برقوق برسالة وهداياه إلى سلطان فاس أبي سالم المريني لغرض شراء خيول المغرب المنتقة. 

(2)
وفقاً يتعلق بالعلاقات الثقافية فقد كان الرحلات والعلماء المغاربة يهتمون بتاريخ المشرق فمنهم من قام بوصف الأمام الذي زاره ومنهم من غزوا أنفسهم بعلوم المشرق، فابن بطوطة الذي زار المشرق في عهد الدولة المرابية قد أهتم بتاريخ بلاد الحجاز حيث تحدث عن العادات والأفعال الحسنة لأهل مكة حيث وصفها ناسها بأنها من الأفعال الجميلة والكماير التامة والأخلاق الحسنة والإحسان إلى الضعفاء والمستضعفين وحسن الجوار للغرباء ويفضيف ابن بطوطة بقوله... بأنه من صنع احدهم وليمة بدأ فيها بإطعام الفقراء المستضعفين المجاريين وذكر بان أماكن تواجد احدهم يكون بالأفرين حيث يطبخ هناك أهل مكة أخيارهم... فإذا طبخ أحدهم خبزة واحتملها إلى منزله يتبعة المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له ولا يرجعهم خانين ولو كان عنده خبزة واحدة فكان يعطي ثلثها أو نصفه عن طيب نفس من غير ضجر(1) ومن عاداتهم الحميدة اعتناههم بالأيتام ومساعدتهم على تعلم طرق الكسب الحلال... كما أشار ابن بطوطة إلى كثرة استعمال أهل مكة للطيب والكحل والسواد ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال يتميزن بالتهذيب والعفة يشكن الرجال في حبهن للطيب لدرجة استبداله بالقوى والطعام(2) وقد كان ذلك وصف مختصر عن اهتمام الرحلات المغاربة بتاريخ الحجاز.
أما علماء الدولة المرابية فكانوا يرحلون إلى بلاد المشرق من أجل أن يزودوا أنفسهم بعلوم المشرق وقد رحل العديد من العلماء والأدباء إلى مصر وبلاد المشرق العربي في الشام والعراق والجزيرة العربية وكان من الذين رحلوا عبد الله المرابي الذي وصل إلى
الإسكندرية واستقر بها واتصل بإقرانه من العلماء أمثال أبي العباس القرطبي و محمد بن برطالة وغيره ونجل عبد الله من العلم وأصبح مثال أقرانه مصدر من مصادر الحديث كما أنه هناك من العلماء الذين قرؤا على الشيخ عبد الله المرنيي مثل جمال الدين أبو عبد الله بن تومر الزواوي الذي كان قاضياً بدمشق وتوفي بها عام 717هـ-1317م(13)
و من علماء المغرب الذين زاروا مصر في العصر المرنيي نذكر منهم المقري الجد الذي كان من أبرز علماء المغرب حيث وصف أثناء زيارته للقاهرة بأبلغ الوصف حيث قال قانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا ومستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وابلاء الإسلام وكرسي الملك يلوح القصور والأواوين في أوجه وترهو الخوانق والمدارس بأفراحه وتضيء البدور الكواكب من علمائه.(14)
و من العلماء الذين نهلوا من العلم لدى علماء مصر عبد الله بن مرزوق الخطيب الذي قرأ على عدد غير قليل من العلماء وقد أحصاهم المقري في نفح الطيب بما يقارب من أربعين عالماً ولم يترك ابن مرزوق فقهاً أو عالماً إلا ونله منه العلوم وتعلم منه وقرأ عليه حتى أنه التقى بالشيخه فاطمة بنتم محمد الفيرومي البكري التي ورد ذكرها عند المقري(15) نقلها عن كتابه الإحاطة في أخبار غرتانطة بأنها كانت ست الفقهاء.
و مثلما رحل علماء المغرب إلى الشرق فإنه جاء إلى فاس بعض علماء الشرق العربي نذكر منهم على سبيل المثال محمد الهادي بن أبي القاسم بن نفيس الشريف وهو جد الشرفاء العراقيين فاس وكان ذلك الشريف قد عرف عنه بأنه عالماً وأديباً معروف لدى خاصة
وعامة من ملوك زمانه، وقد استضاف السلطان المرني أبي سعيد عثمان العالم العراقي الجليل ورحب به وأكرمه وأجزل صلته، كما تواجد عدد كبير من الفقهاء والعلماء والأدباء على السلطان أبي الحسن المرني من بلاد الحجاز و اليمن والعراق فأوسع لهم العطاء الجليل و أولاهم من فضله بالجمال.

لقد تواجد العديد من العلماء والإشراف على فاس لما عرف عن اهتمام ملوك بني مرين بدور العلم و العلماء فقد تواجد من أهل مكة أولاد عبيرة الحسنيين و من المدينة المنورة قدم أولاد حجاز المدنيين والحسنيين وأعداد كبيرة لاتحصى من شرفاء الحلة وشرفاء العراق كما تواجد عدد من فقهاء مكة منهم أبو عبد الله بن عبد المعافى وأولاده و من المدينة المنورة أيضا إلى فاس وقد أعداد كبيرة لا تحصى، لقد كان لشهرة أبي الحسن المرني أن أصبحت فاس محل أنظار المشرق الإسلامي لما عرف به البلاط المرنيي من عطاء وكرم وتشجيع للعلماء والعلوم، وقد وفد على أبي الحسن عدد كبير من الشام ومصر والعراق وبلاد العجم طوايف فلا ينصرف عنه منصرف إلا قد نال منه فوق ما أمله.

وفي الآونة الأخيرة للدولة المرنيية لم تشهد العلاقات بين بني مرین و مصر والشرق العربي مثلما كانت عليه في السابق وإن سكتت بعض المصادر عن تلك العلاقات فإن هناك رسالة نقلها مؤرخ المماليك الفاقشيدي وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين السلطان المرنيي عثمان بن أبي العباس والسلطان فرج بن أبي السعيد برقوق مؤرخة في شعبان 840 هـ - 1441 م و فيها يتحدث السلطان المرنيي في رسالته "و كنتا..."
هذا يقرر لكم من ودانا ما شاء وذاع ويؤكد من إخلاصنا إليكم ما تحدث به السماح (١٠٣) وفي نهاية الختام يؤكد السلطان عثمان على تقديم المساعدات المؤن والمساعدات العسكرية لمصر ضد غزو النصارى حيث يقول عزمنا على أن نندكم من عسكرنا المذرفة بما يضيق عليه الفضاء وتجهز ليجهز لجهزكم من أساطيلنا المنصورة ما يحمد في إمداد المناصرة وبرتضي (١٠٣).

ويظهر من خلال الرسائل بأن بني برين كانوا يقفون موقف المترقب على سلطنة المماليك في مصر وأنهم كانوا يتبعون الجهدة المصرية أول بأول عندما داهم التتار المشرق العربي أيام تيمور لنك ١٤٠١-١٤٠٥م وكان سلطان مصر قد بعث على أثر ذلك رساله يشرح فيها ظروف والملابسات السياسية التي جرت داخل البلاط الملكي و هي التي جعلته ينسحب من دمشق ويعود إلى مصر. (١٠٣)

أما عن علاقات المغرب المريني مع بلاد فارس فقد زار الرحالة ابن بطوطة المغرب تلك البلاد في عهد الدولة المرينية وتعتبر المعلومات التي قدمها تلك الرحالة أجمل ما كتب عن تلك الديار حيث ذكر فيها معلومات قيمة عن مدينة أصفهان وشيراز ونيسابور وغيرها من مدن بلاد فارس وقد أعطى وصفا مدقيا عن طبيعتها ومناخها ومعالمها الأثرية... وفواكهها وأعانها... و عن كرم البلاد وشجاعة أهلها.
لقد قدم ابن بطوطة وصفًا للعاهل المغربي آنذاك عن النهضة العلمية والثقافية حيث أشار إلى أن النهضة الثقافية كانت قد تجاوزت الرجال إلى النساء حيث كان النساء في بلاد فارس يجتمعن لتناول العلم والدرس كل يوم اثنين وخميس بالمسجد الأعظم، كما عُرف ابن بطوطة أهل المغرب بذلك البقاع وأمرائها فكان يعطي صوره مدققة وصادقة عن بلاد المغرب.

لقد زار مدينة نيسابور العظيمة التي كانت تضم مئات الطلاب عند زيارة ابن بطوطة وفي الوقت الذي يزور فيه المراكز العلمية هناك كان يقارن بينها وبين مدارس فاس بالمغرب (32).

وقد استطاع ابن بطوطة أن ينال إعجاب رجال العلم في أصفهان وتقديرهم فمن أكبر مأثور يمكن أن يعرّض بها المغرب أن يخلع رداء على الرحلة المغربية ابن بطوطة، فقد خلع الإمام قطب الدين حسين بن شمس الدين كساءه وخلعه على ابن بطوطة وقد تم هذا في يوم مشهود في 14 جمادي الثانية 727 هـ - 1327 م ولم يكن ذلك الرداء من نوع الملابس العادية ولكنّه ظل يتوارث بطرق الخلع التشريفي عالم علن عالم (33).

وفيما يتعلق بالعلاقات مع أرض عمان الذي كان يعني في فترات من التاريخ طول المسافة التي تستوجب جنوب الخليج اليوم، والظاهرة الفريدة التي يمكن أن نلاحظها في سائر المؤلفات المغربية القديمة هي وحدة المشاعر وانطلاق النوازع فالرحلة المغربية ابن بطوطة هو يقوم بزيارة إلى أرض عمان على الطريق المقابل لشرق أفريقيا لقد شعر وهو في ظفار في أقصى الجناح الشرقي من العالم العربي بشبه
قوي بين أهلها وأهل المغرب و هي حقيقة تجعلنا نقف طويلا عما رواه المؤرخون عن أصول صناعة المحرفة إلى السنغال وعن أهلهم من حمير على حد تعبير ابن بطوطصة وقد قوي من انطباع الرحالة المغربي أنه لاحظ وهو في ضيافة خطيب المسجد الأعظم عيسى بن علي أن أسماء جوارية أيضا مستعملة في غرب أفريقيا و لاحظ أن أهل ظفار تتملكهم عادات و خصائص لا تختلف عن العادات والخصوصات المغربية.

إن تلك الرواية من ابن بطوطصة لا ينبغي أن تؤخذ على إنها مجرد اختراق ولكنها إحدى تاريخية هامة جعلت الباحثين المنغريين يحاولون دائما تمييز الرسالة بين أفريقيا و العالم العربي و عندما تتحدث عن وحدة المشاعر والتضامن الأخوي فكنا نقف على أرجوزة السلاح العربي الشهير أحمد ابن ماجد السعدي الذي تحرس عن سقوط عدد من المدن المغربية بأيدي البرتغالين في أواخر الدولة المرينية، وفي الوقت نفسه وبعد أكثر من قرن يرد الشاعر المنغري أبو فارس عبد العزيز القشطالي الأديب والمؤرخ و الوزير على عهد الدولة السعدية و يهني ذريته ابن ماجد بانتصار المغرب السعدي في معركة وادي المخازن الشهيرة التي جعلت البرتغاليين تندامى قوتها في الشرق العربي الإسلامي حيث يقول:

فكم هنأت أرض الغرات بك العلا و وافت بك البشرى أرض عمان(1)
لقد تميزت علاقات المغرب بالشرق الإسلامي بطابع خاص وهو تدوين الرحالة المغاربة في مذكراتهم عن أحوال البلاد والمدن التي قاموا بزيارتها فكما زار ابن بطوطة في عهد المرنيين الحجاز وفارس وعمان وشرق أفريقيا وغيرها نسمن عنه يواصل زيارته إلى بقية بلاد المشرق حيث وصل إلى أربيل مالديف بآسيا القريبة من سيلان حيث اعتنق أهل الإسلام وقد أعجب ابن بطوطة بسلاك أهل البلاد وإذاعاتهم للنبي والنجاتهم إلى الله وتسليحم الدعاء.

وقد اجتمع بعدن الزيارات في جزر المالديف(4) كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة أخرى وحدثوه عن بدء الإسلام في هذه الديار، وإن إسلام هذه البلاد أو الجزير كان على يد مغربي يسمى أبا البركات البربري المغربي الذي كان حافظ للقرآن العظيم، وبضيف الرحالة ابن بطوطة "... إلى هذا العهد فإنهم يعظمون المغاربة بسما أبا البركات وقد سمو مسجد بالجزيرة معروفاً باسمه قرأته يقول ابن بطوطة على مصورة الجامع منقوشاً في الخشب "أسلم السلطان أحمد شهريار على يد أبا البركات البربري المغربي".

وقد جعل ذات السلطان على ما يقول ابن بطوطة بأن جبابات تلك الجزر وفقاً على المسافرين الغرباء حيث إن إسلامه كان بسببهم (43).

وخلاصة القول إن العلاقات بين بني مرين في المغرب والشرق الإسلامي قد مرت بعلاقات سياسية وثقافية وكانت قوافل الحجيج المغربي والمرسلات السياسية ورحلة العلماء بين المغرب والمشرق هي محور ربط العلاقات بين هذه الديار وذلك الديار.
وماهو جدير بالذكر خلال تلك العلاقات إن الرحالة المغاربة كانوا قد دنووا في رحلاتهم أحوال البلاد والمدن التي زاروها في الشرق الإسلامي وغيرها من مناطق شرق أسيا إن الدارس لهذه الفترة سوف يكتشف بين طيات هذه الكتب وتلك الرحلات معلومات جديدة عن تلك الديار وعن عدد من العلماء والأدباء الذين رحلوا إلى الشرق والساحلين جاءوا إلى المغرب ونذكر على سبيل المثال جد الشرفاء العراقيين فاس محمد بن الهادي بن أبا القاسم بن نفيس الشريف.
المصادر والمراجع

1. أحمد الناصري، الاستقصاء، ج 2، الدار البيضاء 1954، ص 10–11
   الأخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرورية تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر 1920، ص 71–71
   محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المرولي دار القلم الكويت طبعة ثانية 1987، ص 213–212

2. ابن خلدون، العبر المطبعة المصرية بولاق، ج 7، ص 276–277
   المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1971، ص 9–10

3. ابن خلدون، مصدر سابق، ج 7، ص 226–227
   المقرزي، مصدر سابق نفس الصفحة – عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 204–205

4. ابن خلدون، مصدر سابق، ص 266–267

5. ابن خلدون، مصدر سابق، ص 266–267


7. ابن خلدون، العبر طبعة بولاق، ص 226–227

8. ابن خلدون، مصدر سابق، ص 22–23

9. ابن خلدون، نفس المصدر نفس الصفحة.

10. جمال الدين سرور، دولة بني قلقولون في مصر – دار الفكر العربي 1947، ص 142–143
11. ابن خلدون، طبعة بولاق، ص 227 – جمال سرور، نفس المرجع، ص 143.

12. ابن خلدون، نفس المصدر نفس الصفحة.

13. ابن خلدون، نفس المصدر، ص 227 – 228.


15. الناصر، الاستقصاء، ج 2، ص 61 – 62.

16. أحمد القلقشدي، صبح الأعشى، ج 7، الطبعة الأميرية القاهرة 1915، ص 395، ج 8، ص 102.

17. عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 206.

18. ابن خلدون، ج 7، ص 265 – عيسى الحريري، ص 207.

19. المقريزي، مصدر سابق، ج 2، السنة الثانية، ص 447. المقرئي تفح الطيب، ج 4، دار صادر بيروت 1968، ص 402.

20. الناصر، مصدر سابق، ج 2، ص 43 – 45. المقريزي، ج 2، ص 448.


22. أبي المحسن ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، دار الكتب المصرية، ج 9، ص 139 – 140.

23. الناصرى، مصدر سابق، ج 2، ص 24 – 25. محمد المنوني، مرجع سابق، ص 131.
24. الناصرى، ج 2، ص 76 - 78 - محمد المنوني، نفس المرجع، نفس الصفحة.

25. الناصرى، ج 2، ص 74 - 75 - محمد المنوني، مرجع سابق، ص 149 - 151.

26. الناصرى، مصدر سابق، ج 2، ص 140 - عيسى الحريري، ص 209.

27. ابن بطوطة، تحفة الناظر، دار بيروت 1985، ص 137 - عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية الأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض 1996، ص 210 - 211.

28. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 137 - عواطف نواب، مرجع سابق، ص 211.

29. المقرزي، ج 2 القسم الأول، ص 178 - 180.

30. المقرزي، نفح الطيب، ج 5 دار صادر بيروت 1968، ص 255 - 259.

31. المقرزي، ج 5، ص 393 - 395 - ابن فرحون، الدبيج المهبهب في معرفة أعيان علماء المذهب، طبعة أولى، القاهرة 1931، ص 307 - 306.

32. عيسى الحريري، مرجع سابق، ص 210.

33. عيسى الحريري، نفس المرجع نفس الصفحة.


35. القلقشندي، مصدر سابق، ج 8، ص 106.

36. القلقشندي، ج 8، ص 105.
37. القلقشندى، ج 7، ص 407 – 410.
38. عيسى الحريري، ص 211. عبد اللهِّي التازى، العلاقات المغربية الإيرانية عبر التاريخ، مجلة البحث العلمي، مطبعة الرسالة السادس الرباط 1980، ص 17.
39. عبد اللهِّي التازى، مرجع سابق، ص 17.
40. عبد اللهِّي التازى، المغرب في خدمة التقارب العربي الأفريقي مجلة دعوة الحق عدد 269 مطبعة فضالة المحمدية 1988، ص 136.
41. عبد اللهِّي التازى، مرجع سابق، ص 139.
42. عبد اللهِّي التازى، التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية منذ أقدم العصور إلى اليوم طبعة فضالة المحمدية طبعة أولي 1987، ص 136.
43. عبد اللهِّي التازى، مرجع سابق، ص 137.
وصول الإسلام إلى غرب أفريقيا وأثره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصور الوسطى

منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها الإسلام إلى بلاد الشمال الأفريقي، بدأ الإسلام يتسرب بالتدريج إلى غرب أفريقيا. حيث تغلق الفتح الإسلامي عقبه ابن نافع الفهري في حملته الأولى حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي وسار موسى بن نصير على نفس الطريق. ثم اندلعت الإسلام صوب الغرب وتوجه الإسلام كذلك جنوبا حتى وصل إلى قلب أفريقيا. فكان ذلك أول اتصال بين الإسلام القادم من المغرب الأقصى وأقاليم غرب أفريقيا. وقد عبر المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان بقوله: "ما أنتها العمارة إلا من المغرب سواء في الديانات أو المعاملات". ويشير ابن عذاري إلى إن عقبه ابن نافع انحدر في حملته الثانية إلى بلاد السودان من جهة المغرب الأقصى ووصل إلى غانا عن طريق ودان وبني بها مسجدا. ولا يزال ذلك العمل قد استمر منها عددا لا يważب به من العرب المسلمين. تشعر الناس الذين الإسلام. وتشير المصادر إلى أن أشراف قد قدموا من الشرق يتساوي إلى نفس الأسرة الإدريسية التي حكمت المغرب عام 788 م. وان هؤلاء الأشراف كانوا قد سعوا إلى جانب أمر الدعوة والإصلاح. تأسيس مملكة السودان وكونوا أحياء خاصة بهم. حيث تشير النصوص التاريخية إلى إن موسى بن عبد الله بن حسين المثي قد ثار على الخليفة أبو جعفر المنصور وذاق هو وأبناء عوامته أدارسة المغرب والأندلس واليماة الأوامر في بلاد الحجاز، وبعد موت موسى تولى ابنه إسماعيل وأشعث ثورة في غرب الجزيرة العربية ونصب
نفسه ملكا على مكة والحجاز واليمنا ثم تولى أخوه محمد أيضرا وهو الذي بعث حفيده صالح بن يوسف إلى بلاد السودان من المغرب الاقصى وبقي عقب الإدارة معروفاً(4) وقد نالوا هؤلاء الإدارة تأييد الغانيين حيث نقل الغانيون عاصمتهم من ضفة نهر النيجر إلى مدينة كومبي صالح التي قام بتأسيسها الإدارة(5).

و فيما يتعلق بوصول الإسلام إلى كالم بونو فإن الإتصال المباشر بين كالم بونو وشمالي أفريقيا قد بدأ مع بداية دخول الإسلام إلى منطقة السودان الأوسط وأول وجود للمسلمين في بونو يرجع إلى حوالي 42 هـ السبعين الميلادي، وهي السنة التي بدأت فيها الطلائع الإسلامية الأولى إلى إقليم كوار بقيادة عقبة ابن نافع الفني بعد إن مر بمنطقة زويلة بفزان وكان الطريق معروف منذ القدم يستعمل لإغراض تجارية (1) منذ عهد الفرطاجيين والرومان. وعلى أي حال فإن الطريق التي سلكه عقبة بن نافع ورجاله كان يربط كالم بساحل طرابلس مباشرة، وانه كان يمثل مضيق بتدفق من خلاله التأثير الإسلامي المبكر إلى بلاد بونو، وإلي أقلام أخري بالسودان الأوسط (2)، وكان سكان كالم بحكم الموقع الجغرافي الذي يسكنون فيه قد ساعد على الإتصال المباشر بالمسلمين في الشمال الأفريقي، وقد بدأ وصول الإسلام إلى هذه المناطق سليماً بواسطة التجار والفقهاء والدعوة، وكان لاستقرار بعض الجاليات الإسلامية من وقت مبكر أثره في نشر الإسلام بحكم صلتها بالتجارة الخارجية، وفي مثل هذه الحالات اعترفت الأسرة الحاكمة في كالم الدين الإسلامي وأن الإسلام هؤلاء الحكام يرجع إلي اتصالاتهم.
بالتجار من الشمال الأفريقي، وكان من نتائج إسلام ملوك كان إن أصببت لديهم لغة كتابية هي اللغة العربية. وتشير المصادر إلى أن إسلام كان بنو يرجع إلى ما قبل القرن التاسع الميلادي. ويشير في ذلك الرحلة البعقوبي على أنه في أواخر القرن العاشر الميلادي إن سكان كوار التي دخل الإسلام عن طريقهم كانوا مسلمون عن عدة قبائل.

إلى جانب وصول الفاطميين إلى تلك المناطق من السودان الأوسط والسودان الغربي فقد كانت قوافل التجار هي الأخرى تتأتي من شمال أفريقيا، حيث أن الثروة والشهرة التي عرفت بها غانا قد جعلت العديد من القوافل التجارية تأتي منذ مرحلة مبكرة، وبعدها أن أولئك التجار المسلمين الذين جاءوا محملين بالبضائع كانوا من الكثرة حتى استطاعوا أن يؤسسوا لأنفسهم أحياء خاصة بهم قرب عاصمة غانا كومبي صالح واستطاع المسلمون أن يؤسسوا مراكز تجارية حتى داخل الأحياء الوضعية، مما سهل انتشار الإسلام بين الجماعات المحلية، ويشير القلقشندلي إلى أن أهل غانا أسلموا في بداية الفتح، وكان أحد ملوك غانا قد أسلم في القرن التاسع الميلادي وهو تلوتان بن تكلان سنة 837 م. وتشير الروايات على أنه شن حرب ضد الممالك الوضعية المجاورة له من أجل نشر الإسلام، وهذا دليل على أن الإسلام انتشر تدريجياً قبل وصول المرابطين إلى تلك المناطق ولاشك إن لهذة التحركات الإسلامية تأثيراً نسبياً في التعريف بالإسلام في تلك المناطق منذ زمن مبكر.
لقد حمل التجار من المسلمين العرب والأفريقيين إلى غرب أفريقيا ووسطها معالم الحضارة الإسلامية المتمثلة في أنماط الحياة الجديدة في ميادين التعليم والفنون والزراعة والصناعات اليدوية والمهارات والطب (13)... وعشرها. ويبدو أن معظم الفقهاء والتجار المسلمين كانوا من إتباع المذهب الإباضي حيث نشط المذهب الإباضي عام 160 هـ 777 م. أثر انسحاب الجيش العباسي من المغرب الأدنى والأوسط، إذ استطاع عبد الرحمن ابن رستم أن يأسس الدولة الوسمنية في جنوب الجزائر واتخذ مدينة تاهرت عاصمة لدولته. وقد شملت تلك الدولة مساحة واسعة من المغرب الأدنى والأوسط أي معظم أراضي الجزائر وجنوب تونس وغرب وجنوب ليبيا حتى مشارف نهر النيل والسنغال (14)، وبذلك كانت تلك الدولة قد سيطرت على مناطق استراتيجية تمر بها القوافل التجارية بين دول البحر المتوسط ووسط وغرب أفريقيا. الغنية بموارد الذهب والعلاج ورش الثعاب والجلود وغيرها من البضائع، مما أدي إلى ازدهار الدولة وزيادة أهميتها الاقتصادية (15).

لقد كان تجار الدولة الوسمنية وغيرهم من بقية دول المغرب العربي الإسلامي يدخلون في مناقشات دينية وعقائدية مع السكان المحليين في غرب أفريقيا فكان للتجار دوراً هاماً لنشر الدعوة الإسلامية وكان المسلمين بفعل حماسهم لنشر الدعوة الإسلامية قد نجحوا في استمالات الوثنين في الدخول في الإسلام طمعاً في الأجر والثواب من الله (16).
لقد كان الاتصالات التجارية والثقافية أثرًا في نشر الإسلام والثقافة العربية في بلاد غرب أفريقيا وذكر مؤلف كتاب المشايخ بإن بعض الفقهاء والتجار المسلمين في شمال أفريقيا سافروا إلى بلد السودان لغرض التجارة ونشر تعاليم الإسلام، مثل التاجر فلحون بن إسحاق بن واسين، والمعلم موسي هارون ابن عمران الوضياني (17).

وتشير المصادر بأن الدولة الرستمية وجنوب الصحراء كانت تربطه علاقات تجارية ذات طابع سياسي قائم على المصالح المشتركة بين الطرفين، حيث أن تلك العلاقة كانت قد استمرت حتى بعد سقوط الدولة الرستمية أمام الفاطميين سنة 962 هـ إذ فر العديد من الرستميين وأنصارهم من سكان تاهرت إلى ورجلان وتامكة وغنا وغنا وغنا والسودان (18)، حيث عاشوا هناك واندمجو مع الجاليات الإسلامية وكان لهذه الهجرات دورًا بارزاً في نشر الإسلام والثقافة العربية في تلك المناطق الأفريقية (19).

إن هؤلاء التجار والمعلمون والفقهاء الذين جاءوا إلى تلك الديار الذين دفعتهم الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى تلك المناطق قد ساهموا في بناء المساجد ونشر الثقافة العربية الإسلامية وتكوين جاليات عربية إسلامية في غرب أفريقيا.

وحتى ظهور دولة المرابطين على مسرح الأحداث في غرب أفريقيا في منتصف القرن الحادي عشر كان الإسلام ينتشر سلماً باضطراد في غرب أفريقيا جنوب الصحراء على أيدي التجار من الشمال الأفريقي.
لقد قامت دولة المرابطين في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى في جنوب المغرب الاقصى بفضل جهود الفقيه المالكي عبد الله ابن ياسين الجنولي وكان قوام هذه الدعوة قبائل الصحراء الثلاث لمنتهون وجداله ومسوهه وقد عمل هذا الداعي إلى نشر رسالة الإسلام في السودان فبعث الأمير أبو بكر بن عمر المرابط قائدًا لجيش المرابطين، وكان هذا الأمير قد توجه إلى بلاد السودان في رحلته الأولى وترك أمر المغرب لابن عمه يوسف ابن تاشفين (10) وعند رجوعه إليه المغرب كان قد تنازل على أمر المغرب لابن عمه وبعد اتفاق قد تم بينهما بحضور شيوخ لمنتهون وأعيان الدولة والكتاب والشهداء الخاصة والعامة بالتفليدي عن أمر المغرب والتوجه إلى الصحراء لفتح أفريقيا (11) وقد زوده ابن تاشفين بالمال والعتاد والهدايا وانصرف أبو بكر إلي الصحراء فأقام بها مدة ياجاه الكفرة من السودان إلى أن استشهد رحمة الله عليه في بعض غزواته رمي بينهم مسوماً فمات رحمة الله عليه في شهر شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر بلاد الصحراء إلى جبال الذهب من بلاد السودان (12).

وقد اكتشف العديد من أهل هذه البلاد الإسلام وتمسكوا به واخصروا في نشر هذا الدين بين تلك القبائل (13) وكان لنجاح المرابطين في السيطرة على مناجم الذهب من أهم معايدين الثروة في بلاد السودان إذ ساعدت على هجرة قبائل المرابطين إلى تلك المناطق واحتكاكهم بأهالي البلاد المفتوحة، وكانت هذه الهجرات عامل مباشر لدخول العديد من السكان في الإسلام، بينما القبائل التي لم تدخل في الإسلام فقد...
خرجت في اتجاه الجنوب الغربي وفيمناطق متفرقة من بلاد السودان

لقد أثارت حادثة مقتل الأمير أبو بكر أن بدأت القبائل السودانية التي عم الإسلام بين قلوبها أن طالت بدم الأمير واشتعلت الحرب بين المسلمين والوثنيين ثم ما بثت إن دخلت القبائل التي حالفت قبيلة السراكوتasmine، إن دخلت في الإسلام هي الأخرى ودخل الإسلام مرحلة جديدة فأصبح الإسلام في أفريقيا الغربية قوة جديدة حيث كان مقتل الأمير في حد ذاته قد زاد من تغلغل الإسلام بين القبائل (20).

إن جهاد المرابطين في الجنوب أدى إلى استيلائهم على اودغشت سنة 1054 هـ من ملك غانا كما أدى إلى استيلائهم على عاصمتها سنة 1076 هـ والقضاء نهائيا على مملكة غانا الوثنية وقد تم الإسلام أهلها المعروفون بالسنونكي وانشروا في المناطق المجاورة بزاولون التجارة وأصبحوا يرجع الفضل في نشر الإسلام فيمناطق عديدة من السودان.

وتؤكد المصادر إن الإسلام بدأ ينتشر بقوة بين تلك القبائل حيث أصبحت تلك القبائل حاملة معها مبادي نشر الإسلام، ويدور من رسالة كان قد بثت بها القاضي محمد ابن العربي سفير يوسف ابن تاشفين إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي في بغداد والتي يشير فيها إلى امتداد سيطرت يوسف ابن تاشفين إلى الجنوب في إشارة موجزة "ما يلي البلاد غانا وهي بلاد معادن الذهب (21) وكان لإسلام شعب التكرور في حركة المرابطين الأولى على عهد فقيه سوس المصلح ابن ياسين دورة كبيرة في نشر الإسلام، فقد تابعت قبائل التكرور نشر الدعوة بين القبائل
الأفريقية الوثنية وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولبي والمائد نجو وقبائل الولوف ونشروا بينهم الربطات والمدارس الإسلامية في السودان الغربي.

وقد استطاعت هذه القبائل أن تستفيد من حضارة المغرب واستعانوا بالدعاة من فقهاء المرابطين لتعليم الشريعة والقراءة والكتابة بل استفادت تلك القبائل التي دخلت الدين الإسلامي من عادات وتقاليد الحضارة العربية الإسلامية (٧٧) مع الدفعة القوية التي قام بها المرابطون في عهد يوسف بن تاشين في منتصف القرن الحادي عشر من قبائل الماند نجو Kanga الميلادي أتى اعتنق حكام ولاية كنجايا الإسلام وبدأ يمدون نفوذهم إلى أقصى الجنوب وجنوب الشرق حاملين معهم لواء الإسلام حتي نشأت على هذه الأراضي إمبراطورية مالية الإسلامية (٧٨)، كما إن شعوب سنوكي غانا الذين اعتنقوا الإسلام مدوا Dya ومارسين واتجهوا إلى منطقة Dya واتخذوا منها مركزاً للتوسع في الحدود الشمالية ومنطقة الغابات حتى حملوا الإسلام إلى تلك المناطق ونشروا مراكز إسلامية مثل مركز بجو جنوب نهر الفولتا الأسود ومن هذه المراكز نشأت المدن التجارية (٧٩) وكان نتاجة الدور الذي قام به المرابطون والقبائل الزنجية المسلمة التابعة للمرابطين، إن أصبح الإسلام يمد في تلك المناطق من المحيط الأطلسي غرباً إلى مناطق كان برمو شرقاً، كما إن مملكة سنغاي التي كان ملكها زاكي fertilized القبائل الملثمين أول من أعلن إسلامه قبل ظهور المرابطين سنة ١٠٠٠ هـ (٣٠).

لقد أصبح أبناء بلاد السودان الدروع الحليم المغربي والأندلس والإسلام فدافعوا عنه دفاع الأبطال وقاتلوا تحت راية المرابطين فامتدت بسبهم قوة الإسلام وانتقلوا بعد عشرة سنوات من تاريخ إسلامهم عبر الصحراوات الواسعة نحو الشمال ليأخذوا مكانهم على سفن الأسطول المغربي للعبور إلى الأندلس حيث شاركوا بكل شجاعة وإخلاص لذلك الدين الحنيف في معركة الزلاقة، وكانوا قلعة منيعة للإسلام جعلتهم يغامرون بحضور المعركة بأنفسهم وإلي أحد هؤلاء السود الميامين يرجع الفضل في تحقيق معنوية المعتدين النصارى عندما أجهز أحد السود بمنجله على الفونسو السادس وضربه فترجع الملك ممدوحاً ورفعوا راية الإسلام.

لعل أبرز خصائص انتشار الإسلام بلاد غرب أفريقيا أنه بدأ بالطبعات العليا والأسرة الحاكمة وبعدها انتشر بين الرعايا، فقد أرسل المرابطين بعض علماء القبائل السودانية لنشر العقيدة الإسلامية الصريحة وزادت حركة انتشار الإسلام في مالي، ومنذ الشيء أخذت مملكة مالي هي الأخرى تنتشر الإسلام وتدعو له بين الوثنين وأخذت ترسل الدعاء لنشر الإسلام بين بقية القبائل حيث يقول الراهب العمري "وملك مالي في جهد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان"، وقد استمر هؤلاء الدعاء في نشاطهم الديني حتى بعد سقوط دولة المرابطين وكان هؤلاء الدعاء يحضون بنوع من التقدير والاحترام بين تلك القبائل في غرب أفريقيا، فكانت إن تحولت بعض البيوت لاستقبال الطلاب وضيوفهم من أجل أن يستعلم المسلم تعاليم الدين الإسلامي، وقد ظهرت من خلال ذلك فئة متعلمة متقدمة تضم بعض...
العلماء استطاعوا تنظيم إدارة دولتهم الإسلامية ونجاحها على أكمل وجه.

**تأثير الإسلام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية:**

فمن الناحية السياسية بعد الاحتكاك الذي حدث بين الحضارة الإسلامية والتقاليد المحلية الأفريقة اندمج المجتمع الإسلامي المسلم في الحياة السياسية بما يتشابه مع التعلّم الإسلامي، وتم القضاء على كل ما خالف الشريعة الإسلامية من تقاليد محلية موروثة، واستطاع الإسلام بمنهجه السياسي الفكري أن يعد تلك المناهج التقليدية حتى تنتمي مع الفكر الإسلامي.

لقد عرَّف الأفريقيين كيف يتعاملون مع شؤون الحكم فاختذوا نظام الشورى ونظام البيعة كأساس للحكم مثلاً كان عند مسلمي الشرق، وتعلم أهل الحل والعقد أن ينشروا الأمن والعدل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية فاعلي حق الفقير في مال الغني ونظام الجباهة ورد الحقوق إلى أهلها (23).

إن الدارس للحياة السياسية في غرب أفريقيا يلاحظ أن النظام السياسي لا تختلف بعضها عن بعض في المجتمع الإسلامي في غرب أفريقيا سواء في إمبراطورية غانا أو مالي أو سنغالي أو كامن ... الخ.

وقد حاول حكام غرب أفريقيا تقليد نظام الحكم السائد في البلاد الإسلامية على قدر ما سمعوا وعرفوا حيث إن النظام الذي وجد مع الإسلام قد أضعف النظام القبلي الموروث عن الوثنية والذي لم يكن له أثراً يذكر في ظل الإسلام وحضارته. (24)
لقد كان المسلمين في غرب أفريقيا ممن تقليلهم إن الناس يستجرون بدار الخطب فضلاً عن المسجد خوفاً من بعض السلطان، فيذكر ابن بطوطة إن زوجة السلطان منسا سليمان استجارة بدار الخطب في نباني عاصمة مالي أثر اكتشاف اشتراكها في مؤامرة(30) وكان من عادة أهالي أفريقيا الغربية إنهم يبتكون بالحجاج عند رجوعهم من أداء فريضة الحج وجرت العادة أن يخرج السلطان وحاشيته وأهل المدينة لاستقبال قوافل الحجيج وطلب الدعوات منهم، كما كان لإشراف مكة مكانة مقدسة عند مسلمي أفريقيا حيث طلب الحاج اسكيكا الأكبر خلال رحلته للحج عن أمير مكة أن يبعث له بشريف ليتبركوا به فأرسل ذلك عام 915 هـ 1519 م.

لقد أثر الإسلام تأثير كبير في تلك المناطق حتى إن حكام برنيو غيروا من أسماء ألقابهم الوثنية بأسماء إسلامية فمثلًا اسم بيري وهو Madila اسم آلهة المطر في تقاليدهم الوثنية صار اسمه عثمان ومديلاً من أسماء آلهة كائن صار اسمه عبد الرحمن(31).

أما عن أثر الإسلام في الحياة الاقتصادية فمع انتشار الإسلام في غرب أفريقيا تضاعفت التجارة حيث أصبحت تبتكتو كومبتي ونيباني وغيرها أسواقاً اقتصادية تعز بالبضائع الأفريقية والأوروبية وتعددت الطرق التجارية التي تصل إلى تبتكتو وبقية المدن التجارية الأخرى، وقد شجع الإسلام على العمل والإنتاج ووفدت مع المسلمين ومع الاحتكاك الجديد إلى جانب نشر الإسلام محاصيل زراعية جديدة(32) وإدخال وسائل جديدة في الري واستبدال نظام التعامل الاقتصادي القديم بنظام جديد حيث كانت تمارس التجارة الصامتة وأصبحت هذه التجارة
لم تعد صالحة مع مرور الزمن فأدخلت النقود أو العملة كما أدخلت الموازين والمكابيل.

وقد نشأت التجارة في ظل الأمن الذي ساد بلاد غرب أفريقيا.
وفي ظل الإسلام زادت المعاملات التجارية بين الناس، حيث إن الإسلام يحترم الملكية الفردية ويأمر بالصدقة ويعترف بالوراثة ويبين الإسلام من خلال منهجه في الفكر الإسلامي إن المجتمع هو وحدة اقتصادية مترابطة.

ويعطي الرحلة البكري صورة عن التطور الاقتصادي الذي حدث في المجتمع الأفريقي وعن دور المواني المغربية والقبائل المغربية والسلع المتبادلة بين غرب أفريقيا وشمال القارة ويوعد البكري على بعض الكلمات والألفاظ العربية التي استخدمت في ظل الإسلام في المعاملات التجارية في غرب أفريقيا كالشبر وعقود البيع والشراء (34)، وكثيراً ما كان التجار المسلمون يحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصي وثقافتهم، وكان لهذا الاحتكاك أثره الباز في دخول العديد من هؤلاء الزنوج في الإسلام، وكان عدد غير قليل من التجار المسلمين الذين يجمعون بين وظيفة التجارة والعلم فكل ما استقر هؤلاء التجار في مكان معين قام المسلم بإنشاء حلقات لتعليم القرآن والعبادة (34)، وكان تركيز الإسلام في بداية الأمر على المراكز الإسلامية الهامة والمدن الرئيسية ثم تسرء إلى المناطق النائية ونتيجة لنشاطهم أزيد انتشار الإسلام بزيادة نفوذ المسلمين لاتصالهم ببلاط الملك (34).
فقد أصبح الإسلام كما يقول ترمنجهام تصريح مروري لمن يريد التاجر بنجاح مع الدولات الإسلامية في أفريقيا الغربية.(42)

أما الحياة الاجتماعية فقد أثر الإسلام في الحياة الاجتماعية بين مختلف القبائل في التقارب بين القبائل المتضاربة وإصلاح وتهذيب النفوس عند الإنسان الأفريقي، ولعل من أهم أثر للإسلام إن الضوضاء والعادات السيئة التي كانت مرتبطة بحفاظات الوثنية الصاخبة قد انزالت بمجرد انتشار الإسلام بين تلك الفئات، حيث تلاشت تلك العادات السيئة واختفت عبارة "إذا غربت الشمس رقصت أفريقيا"(43).

لقد كان للإسلام أثره في حياتهم اليومية حيث كان معظم قبائل السودان الغربي والأوسط قبل دخول الإسلام يسير عراة وبعضهم يستر جسمه بجلود الحيوانات وبخضوع منطقة غرب أفريقيا للمؤثرات الإسلامية بدوا يقلدون لباس الوافدين ويتزينون بأحسن الملابس ولباسهم عمايل بهكج مثل العرب وقماشهم بيض من ثياب قطن يزرع عندهم وينسج في نهاية الرفع واللطف فيسمى القميصا ومنهم شبيه بزي المغاربة جيب وبدر ربع بلا تفريج وليبس أبطالهم الفرسان أساور من الذهب.(44)

لقد مر الإسلام حياة الإنسان الأفريقي اليومية بعد إن كانوا عراة لا يغسلون يومياً بدوا يتأنقو في ملابسهم من أجل الصلاة ويتظهرون يومياً لأن الشريعة الإسلامية تتطلب طهارة المسلم، حيث أصبح اللباس الجيد وخاصة في المناسبات من أسرار حياتهم الاجتماعية إذ ظهر عندهم فكرة الاهتمام بصناعة الملابس الحريرية والقطنانية المحلية.
إضافة إلى استيراد الملابس الحريرية والقطنانية المطرزة التي تأتيهم عن طريق الشمال الأفريقي (45). ويشير كتاب تاريخ الفناش إلى إن ملك سنغاي الإسكي داود كان يتزين بملابس مغربية عالية الجودة ومنها قميص سوسي نسبة إلى سوس ببلاد المغرب الأقصى وكان عبديه الذين يقفون بجانبه يوم الجمعة يلبسون ملابس حريرية رفيعة (46). وكان الشرفاء وأبنائهم يرتدون جالابيب وعمائم ولهم شعر طويل يصل إلى أطراف الأذان تبكراً بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، أما النساء المسلمات فكانوا يرتدون الحجاب (47) كما كان للإسلام أثره في بناء المساكن، ففي بداية الأمر كانت المنازل يتم بنائها من أغصان الشجر وجدول الحيوانات على شكل خيام ثم تطور بناه المنازل فأصبح ببنياً بمادة الطين ويسقف بالتين، ثم أصبحوا يستخدمون في بناء الحجر المركب والجير وقد انتشر هذا البناء في العديد من المنازل وقصور الملوك التي عرفت نظام الأقواس والزخرفة والنقش على الطرز العربي الإسلامي، وقد انتشر هذا الطراز في معظم مدن غرب أفريقيا وخاصة في منازل الأثرياء (48). كما إن المساجد في طريقة بنائهما ونقشها استخدم فيها الخط الكوفي والخطوط الهندسية والآيات القرآنية كالخط الفاسي، وقد شاع في غرب أفريقيا بناء الأسوار حول المدن مثل ما شاع في المغرب ويعزي ذلك إلى مساهمة الأندلس ومنهم المهندس أبا إسحاق الساحلي الملقب بالطويجين الأندلسي الأصل (49).
وتدل النتائج التي أجريت على مدينة كومبي صالح بأن هذه المدينة كانت شبيهة بالمدن الإسلامية وإنها محاطة بسور وقد وجدت بها مقتنيات أثرية منقوشة على كتابات عربية (١٠) مما يدل على أن الإسلام كان قد وصل إلى تلك الديار منذ زمن مبكر.

ويصف بعض المؤرخين تخطيط المدن في غرب أفريقيا بأنها متأثرة بنمط العمارة الإسلامية في العصور الوسطى فكان لكل مدينة مسجدها الكبير حيث إن بناء المسجد كان قد تم على طراز عربي إسلامي في كل مدينة انتشر فيها الإسلام، وكان من اهتمام المسلمين بالإسلام أن أنشئوا مساجد في معظم المدن التي تشرف على طرق القوافل التجارية، بل إن أثر الإسلام في هذه المناطق أن تحوّلت تلك المساجد إلى مراكز إشعاع حضاري حيث شملت بلاد السودان الغربي والأوسط نهضة علمية وقامت فيها مراكز ثقافية شكلت مركزاً من مراكز الإشعاع الحضاري برز من خلالها العديد من الأدباء والعلماء في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية (١١).

لا شك في أن الثقافة العربية الإسلامية بما أدخته من مفاهيم جديد قد أثرت ثقلانياً في المفاهيم الاجتماعية وفي التقاليد وفي العادات، فقد امتص الإفريقيون في غرب أفريقيا الكثير من معتقدات الإسلام دون أن يترتب على ذلك هزة عنيفة في مجتمعهم، وإذا ما قارنا بين حياة الأسرة المسلمة وحياة الأسرة الوثنية التي تنتمي إلى نفس المكان فلا بد أن نلاحظ بوضوح أن الإسلام ومع هذا لا يمكن أن نسلم بان القانون الإسلامي النموذجي هو الذي كان موجوداً في تلك المجتمع، ولكن لا يمكن إغفال أن التغيير الذي حدث في المجتمع كبير وأن الصراع بين
الشريعة والتعليم ظل لفترة طويلة، حيث استمرت نظام إسلامية إلى جانب تقاليد ترجع إني ما قبل الإسلام ويختلف هذا التغير في المدن عن المجتمعات الريفية، ففي المجتمع الزراعي الريفي عادة ما تستمر المحافظة على التقاليد القديمة الموروثة والميال إلى فكرة التغير أقل من المدن، والدارس لنظام الوراثة ومكانة الأسرة في المجتمع الأفريقي ونظام الزواج والاستجابة للقوانين الوضعية وقوانين الضرائب، يستطيع أن يكون فكرة عن سيادة الإسلام وتعاليه وتأصله في المجتمع الأفريقي (52).

لقد اختلفت بعض الإسلام العديد من العادات السائدة فكان نظام الزواج في المجتمع الأفريقي يتسم بالفوضى فلا يوجد تحديد لعدد الزوجات ... كما أن الزواج يتم داخل العشيرة حافظًا على قوة القبيلة ومع دخول الإسلام إليها انتهت تلك التقاليد القديمة وارتبطت الأسرة بضوابط الشريعة الإسلامية ورفع الإسلام من مكانة المرأة وحفظ لها حقوقها وحقوق أبنائها رغم إن هذا التغير في محيط الأسرة قد استمر مدة طويلة (53) فقد بدأ اضطراب بعض العادات الاجتماعية القديمة وبالذات نظام الزواج، حيث أصبح يسير وفق الشريعة الإسلامية ويضيف ابن بوطوة احتفال سلطان مالي في الأعياد الدينية يقول "...
ويأتي دوغا الترجمان ببناته الأربعة وجواريه (54).

لقد حمل الإسلام معه القيم النبيلة التي تدعو إلي المساواة بين الناس لا فرق بين عربي ولا أعمي إلا بالقوى والعمل الصالح، حيث إن اعتناق هؤلاء للإسلام قد هدب من سلوكهم وساهم في إصلاح المجتمع وقلل من الفوارق اللونية والطبقية والنزعات القبلية وتزوج عدد
من الوافدين إلى تلك الديار من زنجيات(50) وأنجب منهن، وقد وصف توماس إرنولد مسلمي غرب أفريقيا بقوله: "إن المسلمين في تلك المناطق لا يعرفون التخصص في أي شكل من الأشكال ولا يضمنون للمسيحيين أي نوع من العداء (51). وعن أثر الإسلام في المناسبات الدينية فقد كانت الطقوس والشعائر الدينية السائدة في غرب أفريقيا قبل انتشار الإسلام بينهما ذات ثقاقة وثروة قديمة، وعندما دخل الإسلام إلى هذه الديار انتهت تلك العادات الوثنية وحل محلها العقيدة الإسلامية وقد ترتبت على تأثير الإسلام في تلك الاحتفالات أن أصبح المجتمع الأفريقي المسلم يحيي الاحتفالات الدينية بقدوم شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف، ففي شهر الصوم وهو شهر العبادة كان من عادة المسلمين في أفريقيا الغربية إن يأتون إلى المسجد قبل صلاة المغرب ببعض أنواع الأكل من حليب وتمر خبز والحليب... ويوزعون ذلك على المحتاجين من الفقراء وعجاري السبيل وكان قاضي المدينة في شهر رمضان من كل سنة على عادتهم الإسلامية يقدم الهدايا والصدقات في ليلة القدر ويأمر بطبخ الطعام ثم يحمله فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلون وهم قائمون يأكلون تعظيمًا لهم (52). وفي هذا الشهر المبارك تتم في المساجد صلاة التراويح بعد صلاة العشاء كغيرها من البلاد الإسلامية الأخرى ويستمر قراءة القرآن شهر كامل ويقوموا فيه بسيرة صحيح البخاري وكتاب الشفاعة القاضي عياض وفي أخر الشهر كانت تمنح كسوة للقاضي وأصحاب المدائح (53).
المظاهر التي تبرز على أثر الإسلام اهتمامهم بعيد الفطر المبارك الذي يكون بعد نهاية شهر الصوم وفي هذا الشهر تتظاهر فيه الناس رؤية هلال العيد، وبمجرد رؤيته يبلغ الناس دار السلطان أو القاضي للإبلاء بشهادة رؤية الهلال ويتم الإعلان عنه وهي عادة متبعـة في معظم البلاد الإسلامية، وقد انتقلت هذه العادة عبر الشمال الأفريقي وكان الناس يلبسون في الأعياد ملابس خاصة بعياد المسلمين ويهللون بقدم عيد الفطر ويفرحون به مصوحين أطفالهم لشراء لوازم العيد من ملابس وأطعمة (١٠°) وهذا ... وفي صباح العيد تتصافح الأئدة وتتبادـد الزيارات وتتصدقي الناس على الفقراء والمساكين وعبير السبيل.

وفي مناسبة عيد الاضحي المبارك يخرج الناس على المصلى في موكب تشريفي راكبا جواده محفوفاً بjal الدولـة وقادة الجند وحملة الإعلام وغيرهم، وفي هذا العيد يتم نحر ضحية العيد الخاصة بالباشا والقاضي وتخرج الناس لهذه المناسبة وتقلص العاب الفروسية وغيرها وتلبس الناس ملابس العيد (١٠°) وتنحدر المصادر عن احتفال مسلمي غرب أفرـيقا بالولد النبوي الشريف وكان الشيخ أبا القاسم الثواني الذي سكن تنبكتو كان أول من نظم الاحتفال بالولد النبوي الشريف وكان يتولي إطعام أصحاب المدائح لشدة حبه لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم (١٠°).

وكان الاحتفال بالمولد النبوي يتسم بطابع خاص وخاصة في المدن الكبرى حيث يخرج الناس ليلة المولد النبوي في الشوارع للمدح الرسول صلى الله عليه وسلم في تظاهرة دينية كبيرة ويضروبون الطبول ويزينون المساجد ويحملون الفوانيس لإضاءة الشوارع وتقام المدائح في
المساجد والزوايا الصوفية والرباطات والمبادئ العامة وتمكثون إلى
النون الأخير من ليلة المولد (11) وهي عادات انتقلت من البلاد
الإسلامية من الشرق ومن شمال أفريقيا، ومن القصائد التي كانت
تقال في ملح الخُرَّات صلى الله عليه وسلم، قصائد دلال الخُرَّات للشيخ
الجزولي وقصيدة البردة والهمزية للبصيري (12) وبشكل عام فإن
الإسلام دخل إلى غرب أفريقيا حاملاً معه ثقافة عربية زاهية وكان
طبعة الإسلام أن تبني من التقاليد والنظم ومظاهر الحياة ما لا يتعارض
وتقاليد الإسلام ومبادئه وما بات عملاً طبعة المجتمع. ولم يعمل على
تقويض العادات والتقاليد الأفريقية القديمة، فقد أدى ذلك إلى ظهور
مجتمع إسلامي شحيق إذ سرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم حتى صار مستوى التفكير والثقافة تقارن
بنظائرها ويفوق في الدول المعاصرة من أوروبا المسيحية، ولذلك فإن
القول إن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد السودان الغربي والأوسط
يبدأ العصر Gouilly تقترب بالإسلام وبالإسلام كما يقول جولي
التاريخي لأفريقيا السوداء والإسلام والعلوم العربية الإسلامية هي التي
أدت إلى قيام الإمبراطورية الأفريقية الإسلامية الكبرى غانا، ومالي،
وسنغاي ثم برونو والوسا والتكاره والفولانيين أو الفلانين (13).

وهذا ما لاحظه العديد من الكتاب والمؤرخين من أين المساحات
التي يضمها الإسلام في هذه المناطق كانت سابقاً في تحطيب قيد العبودية
والاستعمار عن غيرها من البقاع الأفريقية الأخرى التي لم يصلها
الإسلام أو اللغة العربية أو حتى في جزء من أراضيها، وعن أثر
الإسلام يقول سمت Smith في كتاب "محمد والإسلام" احترم الدعاء
المسلمون العادات والتقاليد والعقائد المحلية ولم يحتروها وهذا أحد أسباب نجاحهم وهو ما ينبغي أن تحذروه البعثات التبشيرية المسيحية حدوه(10)، أما المستعمر الأوروبي فقد جاء بالمسيحية كما يقول بليدن ""أحد المثقفين المسلمين الأفريقيين في القرن التاسع عشر. بليدن فتعلم الزنوج وينوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية أنه الجنس المُنحط عدم الأهلية والكفاعة وانه دون حكامه البيض وعلمته.

لقد دهمهم المستعمر وأجبرهم على اعتناق المسيحية بخُلاف الوسائل والإغراء واستولوا على بلادهم بالعنف والقهارة والتفرقة وأنزلوهم منزلة دون منازل الإنسانية لذلك كان أعظم المثقفين من الزنوج المسيحيين يتعلمون إلى اليوم الذي يزول فيه إثر لندن وباريس ويشبهون وقد زال حديثا إلا قليل""(11).

وبينما شعر الإنسان الأفريقي المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه وكفل له حقه نجد أن الاستعمار الأوروبي قد جعل الأفريقي المسيحي حائر لا يعرف مستقبله فلا هو قريب من مجتمعه ولا هو مرضي عنه الأوروبي المستعمير لكي ينتسب إلى الحضارة الأوروبية المسيحية فحمر الثقافة العادلة والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسحي الأبيض، وكان ذلك عكس الإسلام الذي اعترف منذ أول وحيلة بمساواة التامة بين الأجناس وكفل للمسلم جميع حقوقه دون النظر إلى لون أو جنس(17).

يقول الرحالة منجو بارك ""نجد عمل الإسلام على Mungo Park تطور ببلاد الزنوج ولا يزال يعمل"" ويقول المدون ستانلي Daan Easteron Charch في كتابه عن الكنيسة الشرقية Stanley
لا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلي تقدم وتطور القارة الأفريقية الواسعة ومهما كان مستقبل المسيحية في أفريقية فليس هناك إني شك في أن هذا المستقبل سوف يتأثر بالجانب الحماسي عند الزنوج المسلمين لقد كان للإسلام أثره البازري في حياة الإنسان الأفريقي المسلم، وقد وصف القلقشندى مسلمي كانم بأنهم "بابسون في الدين" حيث إن القرآن كان بالنسبة للأفريقي أكثر اهتمام من غيرهم من بقاع العالم الإسلامي حيث كان المسلم يحتاج إليه في وسائل العلاج من بعض الأمراض وكان من اهتمام غرب أفريقيا بالإسلام حفظ القرآن كما يقول ابن بطوطسا في رحلته إلى مملكة مالي الإسلامية في القرن الرابع عشر الميلادي حيث وجد أطفالاً مقيدين في سلاسل من أجل حفظ القرآن الكريم ويروي ابن بطوطسا أنه دخل يوم عيد الفطر على قاضي مالي فوجد أولاده في القرى ولما طلب منه تسرحهم قال له القاضي لا أفعل ذلك حتى يحفظوه.

خلاصة الفصول إن الإسلام كان قد شق طريقه إلى قلب القارة الأفريقية شرقاً وغرباً على أيدي أولئك التجار والدعاة الذين حملوا معهم مشعل الحضارة الإسلامية، إن الدارسة لهذه الفترة يلاحظ إن هناك علاقات بين مناطق الشمال الأفريقي والمملكة السودانية عبر العصور الكلاسيكية وقد زادت هذه العلاقة وتوقفت مع الفتح الإسلامي وخاصة مع قيام دولت المرابطين حيث أعطوا دفعة قوية للإسلام بين القبائل الوثنية في أفريقيا حتى أصبح الإسلام ينتشر من طرف الحكام الأفارقة بين السكان المحليين وكان من نتائج ذلك ان تكون جاليات عربية إسلامية ومراكز للثقافة ساهمت في تشكيل مجتمع غرب أفريقيا في جوانب السياسة...
والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أن المتوسط للنقل السياسي والاقتصادي في مدن غرب إفريقيا يلاحظ أن المسلمون في بداية الفتح أسسوا مدينة كومبي صالح في مملكة غانا ثم بعدها انتقل النقل السياسي والاقتصادي إلى مملكة مالي الإسلامية ثم إلى سنغالي، ولذلك فإن دراسة أثر الجوانب السياسية والاقتصادية والقوانين الفقهية لتلك المدن قد يفيد في دراسة أثر الإسلام في تشكيل المجتمع الإسلامي في غرب إفريقيا في العصور الوسطى.
المصادر والمراجع

1- حسن احمد محمود، رد الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار النهضة العربية القاهرة 1963، ص 210 - عطا شوقي الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا، مجلة المناهل عدد 7 سنة 1972، ص 134

2- عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان باريس 1964، ص 21

3- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ج 1، تحقيق كولان وبروفيسال، دار الثقافة بيروت 1967، ص 27 - أحمد العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية بيروت 1967، ص 41

4- ابن خلدون، العبر مجلد 4، ص 221

5- محمد الغربي، الجذور الإدارية لإمبراطورية غانا والأصول السنغالية للدولة المرابطية، مجلة دعوة الحق عدد 272 مطبعة فضالة المحمدية المغرب، أبريل 1988، ص 237

6- مكاني، مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين الشمال أفريقيا ووسط السودان، مجلة البحوث التاريخية السنة الثالثة العدد الأول طرابلس، يناير 1981، ص 12 - أمين الطبيبي، وصول الإسلام وانتشاره في كامبرنو بالسودان الأوسط، مجلة كلية الدعوة الإسلامية عدد الرابع 1987، ص 180
7- حسين مؤنس – فزان ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا، مجلة كلية الآداب بنغازي 1979، ص 91-100 – م كاني، مرجع سابق، ص 13


9- أمين الطبيبي مرجع سابق، ص 183

10- البكري، المغرب في ذكرى بلاد أفريقيا والمغرب، مكتبة المثنى بغداد 1966، ص 172 – إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في غرب أفريقيا، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد 27 جوان الأول والثاني، مطبعة جامعة القاهرة 1969، ص 27

11- القلقشادي، صبحي الإعشي، طبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1983، ص 284

12- إبراهيم طرخان، نفس المرجع نفس الصفحة


14- أحمد سعيد الفيتوري، مرجع سابق، ص 247

15- ابن عذاري، مصدر سابق، ص 27 – أحمد الفيتوري، نفس المرجع نفس الصفحة

16- إدريس الحريمي، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام
17 - إدريس الحريري ، مرجع سابق ، ص 84
18 - البكري ، مصدر سابق ، ص 172 - إدريس الحريري ، ص 87.
19 - إدريس الحربري ، نفس المصدر نفس الصفحة
20 - ابن عذاري ، مرجع سابق ، ص 21
21 - ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص 25
22 - أمين الطيبى ، دراسات و بحوث في تاريخ المغرب والأندلس
dar العربية للكتاب 1984 ، ص 308
23 - الناصري ، الاستقصاء الدار البيضاء 1954 ، ص 101 - أحمد العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس - الإسكندرية 1967 ،
ص 304
24 - حسن أحمد محمود ، المرحلة الأفريقية في تاريخ المرابطين ،
magazine التاريخية المصرية مجلد 12 سنة 1965 ، ص 165 -
166 - عبد الرحمن زكي ، الإسلام والمسلمين في غرب أفريقيا
city 1969 ، ص 93 - 94.
25 - محمد المغربي ، موريتانيا و مشاغل المغرب الأفريقية ، الرابطة
1964 ، ص 92
26 - عصمت دندش، المرابطين ودورهم في نشر الإسلام في أفريقيا الغربية، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981، ص 108.
Bouvil. E. W. Opcit. P. 60

27 - عصمت دندش، ص 127

28 - عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، باريس 1964، ص 3

29 - السعدي، مصدر سابق، ص 3 - عطية مخزوم الفيتواري، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قارونس بنغازى طبعة أولى 1996، ص 247

30 - السعدي، مصدر سابق، ص 3 - عطية الفيتواري، مرجع سابق، ص 253

31 - عبد الهادي التازيج، التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية منذ أقدم العصور إلى اليوم، مجلد 5 مطبعة فضالة المحمدية المغرب 1987، ص 37

32 - محمد ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار في الممالك والأمصار ج 1، نشر أحمد زكي باشا، القاهرة 1924، ص 567

33 - عصمة دندش، ص 154

33 - عبد الرحمن السعدي، مصدر سابق، ص 139 - محمود كمت، تاريخ الفتاش، باريس 1964، ص 11 - أحمد الأحمر، أفريقيا والعرب طرابلس 1996، ص 108

34 - عطا شوقي الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا، مجلة المناهلي عدد 7، نوفمبر 1976، الرباط، ص 123.
35 - إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص 66
36 - محمود كتت، مصدر سابق، ص 24 - 90 - 91 - 112 - 120
37 - إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص 67
38 - نقيم قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام 1960، ص 128
39 - شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 162
40 - شوقي الجمل، نفس المرجع، ص 142 - أحمد بابا تيكيتو، نيل الابتهاج، إشراف وتقديم عبد الحلم عبد الله الهرامه كليمة الدعوة الإسلامية 1989 - عبد الحليم الهرامه، من الرسائل الليبية بين مخطوطات تيكيتو، مجلة الوثائق والمخطوطات مركز جهاد طرابلس عدد الثالث طبعة ثالثة 1988، ص 112 - 113
41 - عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا القاهرة 1965، ص 76
43 - القلقشندي صبحي الإشعي، ج 5 طبعة دار الكتب المصرية 1983، ص 299
44 - بانيكار مادهو، الوثنية والإسلام، ترجمة أحمد فواد بلبع، ج 2 القاهرة المجلس الإجتماعي للفنون والثقافة 1988، ص 94 - أمطار سعد غيث أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، دار المدار الإسلامي طبعة أولي، بنغازي 2000، ص 371
45 - محمود كتت، مصدر سابق، ص 114
47 - أمطر سعد غيث، مرجع سابق، ص 372
48 - عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهده الأسقين 1493 – 1672
49 - الجزائر بدون سنة الطبع، ص 167 – 170
50 - نعيم قداح، مرجع سابق، ص 154 – 161
51 - محمد الغربي، مرجع سابق، ص 137
52 - عطا شوقي الجمل، مرجع سابق، ص 161


53 - شوقي الجمل، نفس المرجع نفس الصفحة
54 - ابن بطوطة، تحفة النضار في غزوات الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازي، مجلد 4 طبعة مطبعة فضالة المغرب 1997، ص 260
55 - السعدي، ص 18
56 - توماس ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن
57 - السعدي، ص 1402، ص 118 – 179 – 181
58 - السعدي، ص 266
59 - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص 260 – 261
60 - محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد
61 - السعدي، ص 59 – عبد الحميد الهزمه، نافذة على التاريخ والتراث الإسلامي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية عدد الرابع طرابلس 1986، ص 229 – 233
٦٢ - الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي في أفريقيا فيما وراء الصحراء - القاهرة ١٩٩٩، ص ٨٥ - أمطير سعد غيث، مرجع سابق، ص ٣٩٠
٦٣ - السعيدي، ص ٣١ - ٤٣ - ٥٧
٦٤ - إبراهيم طرخان، مرجع سابق، ص ٥٢
٦٥ - إبراهيم طرخان، نفس المرجع نفس الصفحة
٦٦ - إبراهيم طرخان، ص ٥٥
٦٧ - نعيم قداح، ص ١٣٥
٦٨ - نعيم قداح، نفس الصفحة - إبراهيم طرخان، نفس المرجع نفس الصفحة
٦٩ - ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٢٦٥ - إبراهيم طرخان، ص ٥٥